أنطون الجميّل

١٨٨٧–١٩٤٨

فتشت عن مصدر حديث العهد منا أرجع فيه الى حياة أنطون الجميّل الرجل الذي زفّته لبنان الأشم إلى مصر الوادعة المطمئنة المرتفعة الأهرام، فلم أجد إلاّ سطراً أو سطرين لا تشفي غلة باحث، ولا تسد حاجة دارس، وإذا « معجم المطبوعات العربية » لسركيس يقول عنه ولا يزيد: (محرّر جريدة البشير ومدرّس البيان في كلية القديس يوسف في بيروت ومنشئ مجلة الزهور بالقاهرة). وإذا « بتاريخ الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين » لمؤلفه الأب لويس شيخو اليسوعي لا يعدو أن يقول عنه في ثلاثة أسطر: (محرّر البشير والزهور). نشر في بيروت « البحر المتوسط » وفي مصر « أبطال الحرية » و « منتخبات الزهور » و « السموءل أو وفاء العرب » و « الاقتصاد والنظام في المنزل » و « تعريب كتاب السيدة دوبوك — الفتاة والبيت ») وإذا « بتاريخ الصحافة العربية » للفيكونت فيليب طرازي يشير إليه في كلمة واحدة على أنه كان محرّراً في صحيفة « البشير » السورية في ذلك الزمان. أي في العقد الأول من القرن العشرين.

ومؤرّخ الأدب معذور إذا وجد غموضاً أو اضطراباً في نشأة الأدباء والشعراء الذين يترجم لهم في عصور بعيدة العهد منا، ولكن أي عذر لنا نحن المحدثين ونحن نترجم لأدباء أعزة علينا قريبين منا، فنروح نكشف النقاب عن حياتهم الأولى فلا نجد المراجع تسعفنا بما نطلب أو تمدّنا بما نشتهي من إحاطة بحياتهم ونفوذ الى أعماق نفوسهم.

ولو أنّ الأديب أو الشاعر يترجم لنفسه على طريقة الـ « Autobiography » عند الغربيين لاستراح المترجمون من كثير مما يلقونه من العنت. وقد صنع ذلك الشاعر محمد الأسمر حين ترجم لنفسه في مقدمة ديوانه « تغريدات الصباح » فعرض قصته كما صنعها الله وكما رتّبت عليه الحياة، فأراح بذلك السائلين — بعد عمر مبارك — عن نشأته ومحيطه الذي عاش فيه.

نطون الجميّل

واذا صح ما ذكر أن أنطون الجميّل ولد في بيروت سنة ١٨٨٧ فهو يكون قد تولى تحرير « البشير » سنة ١٩٠٨ — أي أنه عهد إليه بتحرير هذه الصحيفة المعتدلة المتزنة وهو في الحادية والعشرين من عمره . ويكون كذلك أصغر الأساتذة الذين تولوا التدريس في كلية القديس يوسف ببيروت ، لأنه اشتغل بالتعليم قبل اشتغاله بالتحرير . وأظن ما ذكر أنه نزح الى مصر سنة ١٩٠٧ يحتاج الى شيء من التصحيح ، لأن الثابت من سجلات صحيفة البشير أنه تولى تحريرها سنة ١٩٠٨ وأن الانقلاب العثماني حدث في العام نفسه ، فتكون هجرته الى مصر بعد ذلك التاريخ ، والراجح أنها كانت في سنة ١٩٠٩ .

ولا شك أن مواهب أنطون الادبية والخلقية قد ظهرت في أول حياته وجذبت إليه الأنظار ممن يقدرون قيم الرجال . ويدل على ذلك اختياره لتحرير صحيفة البشير ، فقد كانت — كما يقول مؤرخ الصحافة العربية — من أرقى الجرائد التي يركن الى صحة أخبارها وصفاء مبادئها واخلاص خدمتها للآداب والعلم والوطن . وكانت من أقدم الصحف اللبنانية أنشأها الأب أمبروسيوس مونو رئيس الآباء اليسوعيين في سورية سنة ١٨٧٠ وكان غرضها دينيًا أول الأمر وعبارتها ركيكة كبقية صحف ذلك العهد ، وكان لا يقرؤها إلا جماعة الكاثوليك لأنها لسان حالهم . فلما تولى الأب صالحاني قلم رياستها والأديب خليل البدوي تحريرها ١٨٨٢ — ١٨٩٠ ظهر تجديد في عباراتها واتجاهها الأدبي حتى صارت مقروءة من المسيحيين وغيرهم . وجرت العادة أن يتولى ادارتها أب من رجال الدين وتحريرها نابغ من رجال الأدب . فاذا رأيت في ادارتها الأب أنطون صالحاني والأب هنري لامنس والأب لويس معلوف رأيت في تحريرها يوسف البستاني وخليل البدوي ورشيد الشرتوني وأنطون الجميل الذي أسلم تحريرها بعده إلى الخوري بولس طعمة الذي كان من كتّاب مجلة « المشرق » المحققين .

* * *

وكانت هجرة أنطون الجميّل إلى مصر طلبًا للحرية كما نزح إليها كثير من الأحرار اللبنانيين فوجدوا فوق ثرى مصر وتحت سمائها التي تتردد فيها أغانيه حرة طليقة من القيود . ومصر كانت — ولا تزال — ملاذ الأحرار ممن تأسرهم البقعة الكريمة من الارض لأنها بلادهم وأهلهم .

فالتفت أول نغم له بالحرية في مسرحية صغيرة أسماها «أبطال الحرية» نشرتها مجلة المعارف بالفجالة تباعاً على صفحاتها سنة ١٩٠٩ وجعلت شعارها العلم التركي بهلاله الرحب ونجمته الواحدة وتحتها الكلمات التي تمخضت عنها الثورة الفرنسية: — الحرية، المساواة، الإخاء. وقد كان أنطون الجميل معجباً بهذا الانقلاب العثماني الذي كان الدستور نتيجته، ومعجباً بأبطال هذا الانقلاب وخاصة «نيازي» و«أنور» اللذين كانا بطلي مسرحيته.

والمسرحية في ذاتها صغيرة الحجم بسيطة الحوادث ليس فيها ما في المسرحيات من براعة الحوار وحبك الحوادث، ولكن فيها حسن الإنشاء وجودة السبك والاعتماد على العنصر الخطابي. ولكنها على الرغم من بساطة الفن المسرحي فيها لقيت ترحيباً كثيراً من الصحافة العربية والتركية والأوروبية، وأثنت عليها مجلة «اجتهاد» التركية وترجمت قسماً كبيراً منها ونشرته مع صورة للفقيد العظيم.

وقد مكن تضلع أنطون الجميل من الفرنسية أن يلفت إليه أنظار الصحافة الفرنسية فاشتغل محرراً في جريدة «البيراميد» التي كانت تصدرها دار الأهرام، وكان ذلك أول اتصال للفقيد بهذه الجريدة.

وإذا كانت الصحافة قد جذبت أنطون الجميل إليها في جريدة «البشير» بعد اشتغاله بالتدريس فإنها جذبته من جديد في مصر إلى صحيفة «البيراميد»، ثم جذبته ثالثة إلى إنشاء مجلة أدبية، فكانت مجلة «الزهور» التي ظهر أول أعدادها في أول شهر «آذار» أو مارس سنة ١٩١٠. فكان ذلك توافقاً لطيفاً بين اسمها وبين شهر الربيع الذي تتفتح فيه الحياة . . .

ولما عين موظفاً في الحكومة المصرية ابتعد عن الميدان الصحفي إلا ما كان له من بحث أدبي هنا وهناك. ولكنه حن إلى الصحافة أو هي حنت إليه، فأسندت إليه رئاسة تحرير «الأهرام» في سنة ١٩٣٢ وما زال فيها حتى فجأه الموت في صباح الثلاثاء ١٣ يناير سنة ١٩٤٨ وهو عائد من عمله الذي فني فيه كما تفنى الفراشة حول الضوء اللامع حين يغريها بلهيبه البراق ونوره الوضاح.

وحسبه مجداً أن يتولى «الجميل» ثلاثة ألوان من الصحافة في ثلاثة عهود مختلفة من

عصره فيجيد كل لون ويبرز فيه وتنبغ له فيه شئون . فقد تولى الصحافة الدينية في صحيفة « البشير » اللبنانية ، وتولى الصحافة الادبية في مجلته الشهرية « الزهور » فكانت روضة من رياض الأدب الرفيع النزيه المفيد في ذلك العصر ، وتولى الصحافة السياسية في جريدة « الأهرام » فكان فيها سياسيًّا من الطراز الذي حاده « حسان بن ثابت » الشاعر المخضرم بالطراز الأول .

***

لقد صدق القول المشهور : « كلٌّ ميسرٌ لما خلق له » . ومكلف الانسان ما ليس من طبعه متطلب جذوة النار في فيض من الماء فقد أراد (الجميّل) أو أريد له أن يكون « معلماً » أول الأمر ولكنه لم يمض في الشوط الى نهاية . ولم يجر في هذا الميدان الى غاية . وقد أراد « الحجّاج بن يوسف » قبله أن يكون معلماً ، فأرادته الاقدار أن يكون حاكماً من طراز شديد . وأراد « حافظ ابراهيم » أن يكون ضابطاً في الجيش فأرادته الأقدار أن لا يمضي في الميدان الى آخره ، وجعلته صاحب لسان لا رب سنان . ولم تكن الصحافة عند « الجميّل » سياسة فحسب أو لعباً بالورقة الرابحة في ميدان يكثر فيه اللعب بالأوراق والاصطفاق بالأرزاق في الأسواق ، ولكن الروح الأديبة كانت تمشي معه في الصحافة جنباً الى جنب فهو أديب مشرق العبارة واضح الفكرة حسن العرض ، أعانته على مهنته الصحافية سليقة أدبية وثروة مذخورة من البصر بالاساليب العربية التي تعرض الحقائق في ثوب محكم النسج رقيق الحاشية .

وما أشبه « الجميّل » في الصحافة بملاح ماهر يعرف كيف يبحر بسفينته عباب بحر مضطرب لجي يغشاه موج من فوقه موج ، فهو يداور الريح ويداور الموج ويحتال على هذا مرة وعلى ذلك أخرى ، ولا يفقد اتزانه في وسط العاصفة حتى تمر بسلام . ولهذا لم يُعرف بتحزب ولم يُرم بتعصب ، بل كان يمقت الحزبية مقتاً شديداً ويرى أنها سبب ما نحن فيه من بلاء واضطراب . وكان يرى الحزبية قيداً للحرية . وقد أشار الى ذلك في مقدمته التي كتبها لديوان الشاعر « ولي الدين يكن » حيث يقول : (كنت أود أن ألم بالدور السياسي الذي نبذ التقييد في الاستانة ومصر ، ولكني أحذر أن أتهم مرغماً و

العيب الفاشي بالناس . وهو أن يتصوروا موتاهم حسب أحزاب أحيائهم . فحسبي أن أقول إنه كان حرًّا في سياسته كما كان حرًّا في كتابته) .

• • •

والحديث عن مقدمة « أنطون الجميّل » لديوان الشاعر وليّ الدين يكن يسوقنا الى الحديث عن ناحية أدبية عند هذا الأديب الكبير . فقد اشتهر ببضع من المقدمات كتبها وقدم بها بين يدي جماعة من الشعراء والكتّاب ، فكتب مقدمة تحليلية لوليّ الدين يكن في أول ديوانه الذي طبع بمطبعة « المقتطف والمقطم » سنة ١٩٢٤ ، وكتب مقدمة لديوان الشاعر « اسماعيل صبري باشا » الذي طبع بلجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٨ . وهذه المقدمة هي الكلمة التحليلية التي ألقاها في تأبين الشاعر سنة ١٩٢٣ . وكتب مقدمة لديوان « شاعر البرازيل » الذي عنوانه « بين أحضان الطبيعة » والذي طبع سنة ١٩٣٢ وكتب مقدمة لديوان الشاعر « محمد الأسمر » الذي عنوانه « تغريدات الصباح » والذي نشرته « دار المعارف للطباعة والنشر » سنة ١٩٤٦ . وكتب مقدمة لديوان « من وراء الأفق » الذي نشرته دار المعارف في سنة ١٩٤٧ ، وكتب مقدمة لكتاب « منزل وحلّ » للكاتب أحمد الصاوي محمد . وهي كثرة دفعت بعض الكتّاب الى تسمية الفقيد « بكاتب مقدّمات الكتب » . وما كان عجباً أن يتولى الجميّل تقديم الأدباء أو إنصافهم من زمانهم ، فقد عُرف بالنصفة في الرأي والاعتدال في الحكم والرقة في النقد الى حد لا يجرح المنقود ولا يعنف عليه . ولكنه نقد رفيق رقيق . ولا أنسى أنه كان يأخذ عليّ السهولة في عمل الشعر ويحذرني منها « لأنّ السهولة في الغالب مزلقة الى الأخطاء » كما كتب — رحمه الله — في مقدمته لديواني . وهذا نقد رفيق لم يغضبني بل حفظته يداً أحمدها « للجميّل » .

واستمع لنقده الرفيق لبعض ألفاظ الشاعر « الأسمر » في مقدمته لديوانه : — « أما اذا ترك عالم الأحلام والأماني وعاد الى عالم الحقائق المجردة فانه لا يتورّع عن اقتناص اللفظة الواقعية وان كان الشعراء قد تواضعوا على نفيها من لغة الشعر » . ثم يمثل لذلك بقول الأسمر في ديوانه : . . .

واخلعوا الأرسان لسّم (حُمُـرا) واطرحوا النير فلستم (بقـرا)

أليست هذه النعومة أو الـ « Finesse » هي أهم خصائص الأديب الناقد الذي لا يتخذ النقد هراوة غليظة يضرب بها رؤوس المنقودين فينفر الناس منه ومن نقده الثقيل الشديد كالرصاص والحديد ؟؟

* * *

ولم يكن « أنطون الجميـل » كاتباً أديباً فحسب ، ولـكنه كان خطيباً عرفته منابر الادب في القاهرة في كثير من المناسبات . وما عرفته يرتجل الـكلام على المنبر أو يقوله على البديهة كما يفعل الخطباء المرتجلون ، ولكنه كان يعد كلامه إعداداً ويلقيه من فوق أعواد المنبر القاء فسيحاً رفيقاً بيناً في تؤدة وأناة ، حتى يستطيع سامعه أن يتابعه فلا يكل . وما كان أبرعه وهو يضفي الفكاهة الحلوة على خطابه فيثير في السامعين عاصفة من الضحك ويشيع فيهم جواً من المرح .

ألقى مرة حديثاً أو محاضرة في قاعة الجمعية الجغرافية الملكية يوم ١٦ أبريل سنة ١٩٣٦ عنوانه « صانع الجريدة » فجمع عن الصحافة وأوعى . ولـكنه كان يرسل الفكاهة من حين الى حين ، فذكر من أنباء التطبيع أو التصحيف في الطباعة أن عبـارة « تجديد شباب القضاء » قد حرفها العامل إلى « تجريد ثياب القضاة » !

وكان يتخير في خطبه ومحاضراته أطرف المناسبات مما توحي به بديهة حاضرة أو خاطر سريع . خطب مرة في تأبين الشاعر اسماعيل صبري باشا وكان الحفل في ليلة من ليـالي التمام القمر ، فابتدأ الـكلام قائلاً : — (إذا رأينا القمر ساطعاً في كبد السماء — كما نراه في هذه الليلة — لا نتساءل من أين أشرق على الدنيا ...) . وحاضر مرة في الجمعية الجغرافية عن الصحافة فقال عن الصحفيين الجوالين المتنقلين إنهم يضربون في كل جهة من المدينة وفي كل مدينة من القطر .... وما أشد ما تنطبق عليهم الآية الكريمة المنقوشة أمامكم في صدر هذه القاعة « هو الذي جعل لـكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها » . وقد لفتت نظره هـذه الآية منقوشة على جدار القاعة فاستغلها لموضوع محاضرته .

كان « الجميـل » كثير التدقيق لمـا يكتب كثير التدقيق فيما يطبع ، وكان يحدثني أنه يود أن يرى الـكتاب العربي خالياً من أخطاء الطبع . وقد أخذ نفسه بهذا حين أصدر مجلة « الزهور » سنة ١٩١٠ فهي المجلة العربية التي كاد ينعدم فيهـا الخطأ المطبعي ، وتحاكيها في

... حياة الفضلاء العلامة الشيخ ... اليازجي وقد ظهرت هذه الدقة في كثير من نواحيه . فقد كان دقيقاً في مجامر ... حيثما كان ... وكان دقيقاً في تعبيره حين يعالج مسألة سياسية في ... حرله . وكان دقيقاً حين يورد ... وكان ... حين يستشهد بالشعر . فيتحرى ... الروايات فيه ، وينسبه الى ... نسباً صحيحاً ... ما كلفه ذلك من ... في البحث ... ولا أنفي التوفيق خانه فيما ... الى شاعر ... مرة واحدة في المقدمة التي كتبها لديوان « ولي الدين يكن » ، فقد نسب بيتين الى « ابن الرومي » وهما من شعر « مسلم ... الدلي » في قصيدته البائية التي يقول فيها :

لا تغالي ... أنا من يرضيك عند النسب

* * *

ولا أعرف عن أنطون « الجميّل » أنه نظم شعراً أو حاول أن ينظمه ، ولكنه كان في مجموعه قصيدة شعرية متساوقة النغم . وإذا كان الوزن في القصيدة العربية ركناً من أركانها ، فقد كانت حياة « الجميّل » متزنة في كل نواحيها ، فما عُرف عنه إسراف في شيء أو إفراط في أمر . اتزن في الأدب فكان أديباً وناقداً حصيف الرأي ، واتزن في السياسة فكان رجلاً معتدلاً يحبه رجال الأحزاب وقد ... كل حزب منهم ... واتزن في علاقاته مع الناس فأحبه الكبير والصغير . ولا أعرف أنه أسرف في شيء إلا حين أسرف على نفسه بالعمل حتى ... فكان بذلك مستجيباً لدعوة « جوزيف كونراد » الكاتب الانجليزي حين قال « اعمل حتى تموت » « Do or die » . ومن عجب أنه لم يقل الشعر حتى حين نبغ فيه ... من رفاقه في عهد ... بلبنان ... « شبلي ملاط » و « بشارة الخوري » و « الأخطل الصغير » والمرحوم « وديع عقل » الذين تغني آثارهم عن أخبارهم .

على أن جيله من الرفاق قد أخرج جماعة من الأدباء ... « مسعود درويش » و « ابراهيم المنذر » و « شكري الترولحي » و « ابراهيم سليم النجار » و « يوسف البستاني » .

ولكن هؤلاء الرفاق تفرقوا ومنهم من ... مناكب الأرض أو مضوا في مناكبها فدفعت أسباب الحياة « أنطون الجميل » الى مصر ، وادخرت له أسباب الموت في ثراها .

ومن كانت منيته بأرض فليس يموت في أرض سواها

محمد عبد الغني حسن